الصياد والسمكه

الكسندر بوشكين

عن الأخوين جريم

يبدو أن ظهور الحدوتة كان على ألسنة الفلاحات في ألمانيا، جمعها الأخوان جريم قبل أن تندثر ضمن حواديت البسطاء وتناقص الرواة. ظهرت لأول مرة عام ١٨١٢، ترجمتها الأستاذة منى الخميسي. تعد صياغة الكسندر بوشكين معالجة شعرية متطورة. وُلد بوشكين عام ١٧٩٩ لذلك لا يمكن أن نفترض أنه هو من استحدثها ابتداءً. وقد عثرت على هذا النص العربي الفريد لدى بائع كتب قديمة اسمه عبد الحليم، كان مطمورا كجوهرة في جوف الجوف من حانوته، هو أيضا (البائع) كان مطمورا في الحياة كجوهرة. أما الكتاب الذي أهدانيه فكان هالكًا لن يشتريه أحدٌ؛ فلم يكن مكتوبا عليه اسم المترجم.. ابتعته منه بجنيهٍ واحد؛ كان سِفرا مهترئا يوشك أن يلفظ أنفاسه. أنقذته بتجليده، ليتني أستطيع أن أنقل لكم أيضا الرسومات البسيطة المذهلة. أما أمنيتي الكبرى، فهي الوصول لصاحبه؛ يبدو أن هذه الحدوتة لا يتم إنفاذها دائما إلا في اللحظة الأخيرة.

يروون أنْ: في سالفِ الزمان

قد عاشَ في كوخٍ عتيق

يقوم عند شطِ بحرٍ أزرقَ عميق

شيخ وزوجهُ العجوز

ولم يكونا يملكان غير قصعةٍ قديمةٍ من الخشب

ومِغزلٍ عليه تغزلُ العجوز

وشبكةٍ يُلقي بها الزوجُ الهَرِم

في اليمِّ كي يصطادَ ما يقتاتُه وزوجتُه

وهكذا مرَّتْ عليهما السنون

حتى إذا ما كان ذاتَ يوم

في البحرِ ألقى الشيخُ شبكَتَه

وشالَهَا... ما كان غير الطينِ عالقًا بها

فرَدَّها للبحرِ ثانية

وشالَهَا.. عادت إليه خالية

إلا من الأعشابِ والرمال

فرَدَّها للبحر ثالثة

وشالَهَا...

وكان فيها سمكةٌ صغيرةٌ، لكنها من الذهب

فخاطبته كالبشر وألحَفَت عليه في الرجاء:

" يا شيخُ إن وهبتني حريتي، أهبْك ما تريد،

يا شيخُ إني أفتدي نفسي بما تريد"

واندهشَ العجوزُ بل وخاف

قد مرَّ دهرٌ وهو هاهنا يَصِيد

ما صادَ يومًا سمكةً تخاطبُ البشر

ورقَ قلبُه فقال في حنان:

" يا سمكةً من الذهب، فليرعَكِ الإله.

مالي لديك من طلب

فلتسبحي في زرقةِ البحرِ العريضِ، في مداه"

وعاد يروي للعجوز ما رآه:

" اليوم صِدتُ سمكةً من الذهب،

توسلت تريد أن تعود،

لبَّيتُها في البحر قائلة:

يا شيخُ إن وهبتني حريتي أهبْك ما تريد

لكنني خجلتُ ما طلبت منها أيَ شئ

وهكذا أعدتُها لليمِّ في رعايةِ الإله".

فراحت العجوزُ تشتُمَه:

" يأيها االمعتوهُ يا غبيُ

أطلقتها وما طلبت منها أي شئ

يا ليتما طلبت قصعةً من الخشبِ

فهذه التي لنا تشققت من القِدم"

وها هو العجوزُ نحو البحرِ يمضي.. ما يرى؟

الصفحةَ الزرقاءَ بعض الشئ تضطرب

وصاح يدعو السمكةَ المذهبةَ

فأقبلت عليه في النداء سائلة:

" يأيها الشيخُ الوقورُ ما تريد؟"

أجابها العجوزُ وهو ينحني لها

" رحماك يا سميكتي.. سيدتي!

قد وبختني زوجتي،

ولم تعدْ تذيقني طعمَ الهدوء.

تريد قصعةً جديدةً من الخشب،

فالقصعةُ التي لنا تشققت من القِدم"

فخاطبته في الجواب قائلة:

" لا تحزننَّ وأمضِ في رعايةِ الإله،

ستملكان قصعةً جديدةً من الخشب"

وحين عاد الشيخُ للعجوز،

كانت لديها قصعةٌ جديدةٌ من الخشب.

وزادت العجوزُ في الصراخِ والسُّباب:

"يأيها المعتوهُ يا غبي!

طلبت يا غبيُ قصعةً!

ما أكبرَ النفعِ الذي ترجوه في قصيعةٍ؟

ارجِعْ وحيِّ السمكة المذهبة

واطلب على الأقل منها منزلًا".

وها هو العجوز نحو البحر يمضي من جديد،

(والبحر هائج عكر)

وصاح يدعو السمكةَ المذهبة،

فأقبلت على النداءِ سائلة:

" يأيها الشيخُ الوقور ما تريد؟"

أجابها العجوزُ وهو ينحني لها

" رحماكِ يا سُميكتي.. سيدتي!

قد زادت العجوزُ في السُّباب،

ولم تعد تذيقني طعمَ الهدوء،

تريد زوجتي العجوزُ منزلًا".

فخاطبته في الجوابِ قائلة:

"لا تحزننَّ وامضِ في رعاية الإله.

إليكما ما أردتما، ستملكان منزلا".

وحين عاد الشيخُ يبغي كَوخَه،

ما كان للكوخِ العتيقِ من أثرْ

إذ قامَ في مكانِه بيتٌ جميل

ذو قمرةٍ وفوق سطحهِ المدهونِ تنتصب

من الآجرِ مدخنةٌ

وزوجهُ في شرفته

تسبُه بكل أنواعِ السباب:

" يأيها المعتوهُ يا غبي!

طلبت يا غبيُ منزلًا!

ارجع وحي السمكةَ المذهبة!

وقل لها:

ما عدت أرضى أن أكونَ

فلاحةً بلا حسب

إني أريدُ أن أكونَ

نبيلةً عريقةَ النسب".

وهاهو العجوزُ نحو البحر يمضي من جديد.

(البحرُ عاصفٌ يجيش)

وصاح يدعو السمكةَ المذهبة

فأقبلت عليهِ في النداءِ سائلة:

" يأيها الشيخُ الوقورُ ما تريد؟"

أجابها العجوزُ وهو ينحني لها:

" رحماك يا سُميكتي... سيدتي

قد زادت العجوزُ في جُنونها،

ولم تعدْ تذيقني طعمَ الهدوء

تقول إنها تريدُ أن تكون

نبيلةً عريقةً النسب".

فخاطبته في الجوابِ قائلة:

" لا تحزننَّ وامضِ في رعاية الإله".

وحين عادَ الشيخُ للعجوز...

ما أعجبَ الذي رآه:

قصرا منيفا فوق شرفتِه،

رأى العجوزُ زوجتَه

في بَزةِ ثمينةِ الفراء

ورأسُها عليه قبعةٌ ثمينةُ النسيج

وتثقل العقودُ جيدَها

ومِعصمانِ مثقلانِ بالحُلِي

وتحتذي نعلَين أحمرَين

وتنهرُ الخدم، وينحني أمامها الخدامُ والحَشمْ

فقال وهو ينحني محييا:

" تحية الإجلال يا أميرتي، سيدتي النبيلة!

لعل روحَك اطمأنتْ بعدَ هذه النعم؟"

فصاحت العجوزُ تنهرُه.

وأرسلته سائسا إلى حظيرة الخيول.

*****

ومر أسبوعٌ وأسبوعٌ تلَاه، وزاد طيشُ الزوجةِ العجوز

فأرسلَتهُ من جديد للبحر قائلة:

" ارجعْ وحَيَّ السمكةَ المُذَهبة، وقل لها:

ما عدتُ أرضَى أن أكونَ نبيلةَ عريقةَ النسب.

أريد أن أكونَ قيصرة".

فخافَ قلبُ الشيخُ، قال في رجاء:

" ويلاهُ هل جننتِ يا عجوز! ما أنتِ إلا جاهلة،

لا قولَ تُحسنين، لا عمل،

بل سوف تُضحِكينَ كل المملكة"

فزادَ هذا القولُ غضبةَ العجوز

فخاطبَتْهُ وهيَ تصفَعُه:

" من أنت يا صعلوكُ كي تناقشَ الذي أقول

أنا النبيلةُ العريقةُ النسب.

قد قيل لك: ارجعْ لها،

حافظ على كرامَتِك؛

قهرا تقادُ إن رفضتُ"

وهاهو العجوز نحو البحر يمضي من جديد

(والبحرُ قاتمٌ المياه يصطَخِب)

وصاح يدعو السمكةَ المذهبة

فأقبلت على النداءِ سائلة:

" يأيها الشيخ الوقور ما تريد؟"

أجابها العجوز وهو ينحني لها:

"رحماكِ يا سُميكتي.. سيدتي!

قد عاودَ العجوزُ طيشُها

ولم تعد تريدُ أن تكونَ

نبيلةً عريقةَ النسب؛

تريدُ أن تكونَ قيصرة"

فخاطَبَتُه في الجوابِ قائلة:

" لا تحزننَّ وامضِ في رعايةِ الإله.

سمعًا، ستصبحُ العجوزُ قيصرَة"

وعادَ ذاكَ الشيخُ للعجوز.

ماذا يرى؟ بلاطَ مملكة!

وفي البلاطِ زوجُه العجوزُ قيصرة

أمامها الساداتُ والأعيانُ يخدمونها،

يسقونَها من أجودِ الخمور

وتأكل العجوزُ أفخرَ الأكول

من حولِها الحراسُ شاهرون

أطبارَهم

وإذ رأي العجوزُ ما رآه خاف

وخرَّ راكعًا يقول:

"تحيه الإجلالِ يا مليكتي الموقرة

لعل روحَك اطمأنت بعد هذه النعم!"

لم تنظرْ العجوزُ نحوه

بل اكتفت بطرده من البلاط

واستبق الساداتُ والأعيانُ في تنفيذِ أمرِها

يُدَّفعون الشيخَ في قفاه

وأمسكَت برقبتِه

في البابِ قبضاتُ الحرس

وكادت الأطبارُ أن تقصَّ رأسَه

والشعبُ يرنوا ساخرًا:

"هذا الجزاءُ ياهَرِم

لغيرِ كَرْمِك الذي تملُكه لاتمدُدْ يدَك"

ومر أسبوعُ وأسبوعُ تلاه

وازداد طيشُ الزوجةِ العجوز

فأرسلت حراسَها للزوجِ تطلبه

فأمسكوا به وأحضروه

وقالت العجوزُ تأمره:

"ارجعْ وحيَّ السمكة المذهبة

وقل لها: ما عدت أرضَي أن أكونَ قيصرة

إني أريدُ أن أكونَ ملكةَ البحار؛

كيما أعيشَ في المحيطِ،

وأن تكونَ السمكةُ المذهبة

وصيفةً في خدمتي"

ولم يعارضْ شيخُنَا المِسكينُ زوجتَه

بل خافَ حتي أن يناقشَ الذي تقولُه العجوز:

وها هو المسكينُ نحو البحر يمضي.. ما يري؟

عواصفٌ هوجاءُ فوق البحر قائمة

والموجُ صاخبٌ يجيش بالزَبد

والريحُ تعوي كالذئاب

وصاحَ يدعو السَّمكةَ المذهبة

فأقبلت عليه في الجوابِ قائلة:

"يا أيها الشيخُ الوقورُ ما تريد؟"

أجابَها العجوزُ وهو ينحني لها:

"رحماكِ يا سُميكتي.. سيدتي!

قد حيرتني زوجتي اللعينةُ العجوز

تقول: لاتريد أن تكون قيصرة

تريد أن تكونَ ملكةَ البحار

كيما تعيشَ في المحيطِ

وأن تكوني عندَها

وصيفةً لها"

ولم تُجبْه السمكةُ المذهبة

بل لوحت بذيلها في الماء واختفت

في لجةِ البحرِ العباب

وبعدها طال انتظار الشيخُ للجواب

فلم يطقْ وعادَ للعجوز

وإذ به يشاهدُ الكوخَ العتيق

وزوجه ببابه أمامها

قصيعةٌ قديمٌ ، مشققه، من الخشب